

الفلسفة والالهيات*

اتفقت كلمة الشعوب الاسلامية على أن العصر الذهبي للخلافة قد ازدهرت فيه مذاهب في الفلسفة ، كانت عربية إسلامية ذاعت في العالم ذيوها واسع المدى ، وأن المعاهد الاسلامية قد مهدت لظهور الجامعات الأوروبية ، وكانت ائثال الذي به تفندي وعلى هده تسير

وهذه النظرة النظرية على اعتبار الاسلام مصدر الحضارة الأوروبية ، نشأت في رحابه ، ودرجت في ظلاله ، واستقت من مفيته ، لا تراها منبثة في الكتب الأدبية التي أريد بها مجرد الدعاية فحسب ، بل تراها شائعة - بحق أو غير حق - في أكثر البحوث القيمة التي ساهم فيها العلماء من المسلمين المحدثين وتناولت تقدم الأنظمة الاسلامية وتاريخها في العصر الوسيط

وإننا لنرى في الأدب العربي بين الحين والحين إشارة إلى ما يطلقون عليه اسم « الفلسفة العربية » ، كما نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم ليست إلا خليطاً من آراء القدماء لا تجانس بين موادها المتنوعة ، قد ترك ليتفاعل وينضج ، فهم منتهون إلى أن ليس هناك شيء اسمه « فلسفة عربية » وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئاً أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا ، والمثقفين من أهل خيران الوثنيين ، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند^(١)

(*) هذا المقال هو بداية فصل الفلغة والالهيات في كتاب تراث الاسلام الذي ستمدره لجنة الجامعيين في هذا الشهر - وقد تولى كتابة الفصل « الفريد جيوم » وقام بتعريبه والحق عليه « توفيق الطويل » (١) على أن من الانصاف أن نقول إن بين مؤرخي الفلسفة في الغرب طائفة أخرى لا يرضيها هذا الحكم ، إذ انعد رأيا على أن لفلسفة الاسلامية كياناً خاصاً يميزها من مذاهب أرسطو وفلسفها ، بل من الآراء الهندية والفارسية ، لأن فيها ثمرات من عبقرية أهلها - وإذا كان قد وجد من يقول كآرنت رينان في كتاب ابن رشد ومذهبه : « ومن عجائب القدر أن هذا الجنس - السامي - الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسس درجاتها لم يشر أدنى بحث قاسي خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا التباساً صرفاً جديداً وتقليداً للفلسفة اليونانية » أو شلدير القائل في رسالة له في المذاهب الفلغية عند العرب : « لا نستطيع أن تذكر قط فلسفة عربية على الوجه الدقيق لما

ومهما يكن من شيء فإن من الحق أن نرد الفلاسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب ، وأن نعتبر الفلسفة اليونانية المعين الذي استقوا منه مذاهبهم ومهما قيل عن هذا الأمر في العصور الحديثة فإن العلماء المسلمين في العصور المتقدمة لم يخطوا السبيل إلى فهم هذه الحقيقة . فالجاحظ البصري المتوفى سنة تسع وستين ومائة بعد الميلاد - وهو كاتب قدير متبحر كان تأثيره في أسبانيا الاسلامية على جانب عظيم من الأهمية - يترف اعترافاً وانحماً بفضل الفكر اليوناني على أهل ملته فيقول : ألم تبلغنا كتب القدماء التي خلدوا فيها حكمتهم الرائعة ، وعالجوا بين صفحاتها دروس التاريخ المتشعبة ، حتى بدا الماضي حياً أمام أبصارنا ؟ ألم تصل إلى أيدينا نفاث تجاربهم التي ما كنا بغير هذه الكتب لتعرفها أو لنصيب في الحكمة حظاً يذكر ، أو نسلك للتحصيل سبلاً معقولة ؟

وفوق ذلك فإن الفلاسفة وعلماء الكلام لم يحاولوا في أكثر أبحاثهم أن يخفوا عن الناس النبع الذي نهلوا منه^(٢)

== يفهم من هذه العبارة كما نذكر فلسفة يونانية أو ألمانية ... ومهما ذكرنا هذه العبارة فالتا لا نريد شيئاً غير الفلسفة اليونانية كما فهمها العرب « إذا كان قد وجد من يذهب إلى هذا فقد وجد النصفون من مؤرخي الفلسفة الاسلامية في الغرب أمثال جوستاف دويا القائل في كتابه : (تاريخ الفلاسفة والمثكلين من المسلمين) : « وما أسوق إلا شاهداً واحداً : فهل يظن ظان أن عقلا كعقل ابن سينا لم ينتج في الفلسفة شيئاً طريفاً وأنه لم يكن غير مقلد لليونان ؟ وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثماراً بديعة أنتجها الجنس العربي ؟ » أو ليون جوتييه القائل : « إن الفلاسفة الاسلاميين لم يألوا جهداً في القيام بواجبهم من هذه الناحية - التوفيق بين الفلسفة والدين - وقد أبدوا في ممارستها على ما فهم من دقة وعناية خصالا منقطعة النظير ، وتفاذاً وبعد نظر ، ورأيهم فيها بين الشريعة والحكمة من الاتصال هو مفرد الطرافة في هذه الفلسفة اليونانية الاسلامية »

قد خففت صيحة العصية الدينية والجنسية في أواخر القرن التاسع عشر حتى إذا أقبل القرن العشرون كاد أن ينقذ الاجماع بين مؤرخي الفلسفة في الغرب على أن الفلسفة الاسلامية قد كتلت هس أرسطو بتوضيح نظرية الاسكان على نحو ما ألبتها هورتن الألماني

استنت في هذا التطبيق بمحاضرات أستاذنا الجليل فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق لطلبة الفلغة بالجامعة المصرية في السنة الدراسية ١٩٣٢ - ١٩٣٣ : وهي لم تطبع بعد (العرب)

(١) ومن المؤلفين الاسلاميين الذين يذهبون إلى هذا الرأي الفهرستاني الذي يقول في اللؤلؤ والنحل : « قد سلكوا - أي الفلاسفة الاسلاميون - طريقة أرسطاطاليس في جميع ما ذهب إليه واتخذ به سوى كلمات بديرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتضمنين عليه » - ويقول ابن خلدون في

وفي الحق أن لمباراة « الفلسفة العربية » معنى معيناً عند المستشرقين^(١)، فهم يعرفون أن بين العرب الخالص الدم واحداً فذا هو « السكندى » قد امتاز بطول يابعه في المسائل الفلسفية، ولكنهم يعرفون — إلى جانب هذا — أن ذلك الخليط الغريب الذي يغلب عليه التنافر — والذي اختلف من الأرسطاطالية والأفلاطونية الحديثة، وسلم به أكبر الفلاسفة المسلمين كتفسير معقول للكون — يمتزج عربياً قبل كل شيء، وإن لم يكن إسلامياً، لأن أكبر زعمائه كثيراً ما كانوا مسلمين بالاسم أو زنادقة جهروا بذلك جهراً أدى إلى ضياع حياتهم أو فقدان حرياتهم

ولو أن العرب كانوا براءة كالمقول الذين أطفأوا جذوة العلم في الشرق إطفاء لم ينبعث من بعدهم البتة — وقد لا ينبعث أبداً بسبب ضياع دور الكتب وفقدان الآثار الأدبية — لو أنهم كانوا كذلك، لتأخر عصر الأحياء عن مواعده في أوروبا أكثر من قرن

وليس من شك في أن حياة طالب العلم قبل عهد الطباعة كانت تفيض دائماً بالضجر واليأس، وكان مالوفاً عند الكثيرين من طلاب العلم أن يقوموا في طلبه برحلة يقطعون فيها ألف ميل أو يزيد في سبيل البحث عن معلم يتقنون عنه العلم. ولبنوا يقاسون هذه المشقة حتى العصر الذي قامت فيه الجامعات الإسلامية — بل إلى ما بعد هذا العصر — وقد قام الشبان برحلات طويلة من الأندلس إلى مكة أو من مراكش إلى بغداد، تاركين دورهم وهم خالو الوفاض أملاً في التلمذ لأستاذ يصادف اختيارهم

ولعل في وسعنا الآن أن نقول كلمة في نشأة الجامعات الإسلامية: فأولها هي المدرسة النظامية المروفة ببغداد، وقد قام بتأسيسها نظام الملك صديق عمر الخيام ووزير السلطان السلجوقي « ألب أرسلان » سنة سبع وخمسين وأربعين للهجرة، أي في العام السابق لفتح النورماندى لأنجلترا^(٢). ثم قامت

(١) كما أن لها عند غيرهم معنى معيناً: فارجع Keicher's monograph Ravnundus Lullus und Seine Stellung zur arabischen Philosophie (٢) جاء في الجزء الثاني من ضحى الإسلام للأستاذ الجليل أحمد أمين أن الذهبي قد ذهب إلى أن نظام الملك كان أول من أنشأ المدارس: فبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بخراسان، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرج، ومدرسة بأمل

وما كان التطل بالعلم ليخضع المرء في التعصب للقرآن وسنة النبي. فكانت الأبحاث العقابية المجهولة للعرب في عصر الرسول تاتي استنكاراً شديداً كما كان الذين يدخلون في الإسلام بدعة يستمدونها من مصدر أجنبي معرضين لهذا النوع من الاستنكار، وكانوا يقولون إن الفلسفة « حكمة مشوبة بالكفر » — وإذا استعرضت أسماء المؤلفات ككتاب: عرض لمخايزي الاغريق ومنهل للحكم الدينية — وكتاب البرهان الحسي على تنفيذ الفلسفة في القرآن^(١) عرفت ما تتضمنه الكتب مما يؤيد ما نقول — وثمة حكاية متداولة عن فيلوف معروف عدل عن آرائه وهو على فراش الموت، وكانت آخر عبارة قلها: صدق الله العظيم وكذب ابن سينا

ومن الحق كذلك أن نذهب إلى القول بأن ما أضافه العرب من الثقافة الانسانية إلى تراث من سبقهم من المفكرين لم يكن كبير الشأن لموس الأثر. وبالرغم من هذا، ومع أننا على يقين من أن ما خلفته الحضارة الاسلامية لا يخطر له، أو ليس أكثر مما ورثته عن غيرها من الحضارات، فليس من العدل في شيء أن ننكر عليها توسلها إلى الجمع بين الأفكار الفلسفية على نمط يميز لها، تلك الأفكار التي عزهاها علماء المسلمين إلى أنفسهم وإنه لمن الظلم البين أن نحقر من شأن الشغف في طلب العلم من أجل العلم، ذلك الحماس الذي كان يتقد في صدور جموع غفيرة من الناس في رحاب الدولة الاسلامية الترابية الأطراف

== مقدمته: « تم كان من بعده — أي أرسطو — في الاسلام من أخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حتى النمل بالنمل إلا في القليل النادر » — ومن الفلاسفة المتصوفة الذين ذهبوا إلى هذا الرأي ابن سبعين في تصوره لابن رشد والفارابي وابن سينا والغزالي (أنظر كتاب الأستاذ ماسينيون: مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف في بلاد الاسلام. على أن من الانصاف أن نقول إن بين الفلاسفة الإسلاميين فلاسفة على الحقيقة كانت وجهتهم أن يشيدوا هيكلًا قلوبياً يقوم على قواعد مما يحسه التقدي وترفع أركانه بما عملته أيديهم وما كسبوه من غير اليونانيين، وقد أبان عن هذا ابن سينا في مقدمته لكتاب « منطق المشرقيين » طبع للطبعة الثانية. استنحت في هذا التعليق بالمحاضرات التي أسلفت الإشارة إليها في التعليق السابق (للمرب)

(١) ترجمت النواتج بعد أن حاولت الاهتداء إلى نصها في العربية فلم أوفق. وقد اتصلت بالأستاذ « جيوم » — مؤلف هذا الفصل — في انجلترا لعله يهديني إلى معرفة النص الصحيح. فقال في رسالته إلى: إنه كان يكتب لتقارير الفرقي الذي يجهد في العربية، ولو أنه كان يكتب للمستشرقين أو قضاة بلخ بالعماد لاجتم بذلك جميع أسماء المصادر والكتب التي أشار إليها في بحثه (للمرب)

من (الكتاب الذهبي) قبل أنه يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

تمة

للأستاذ زكي عربي

— ٦ —

أنشئت المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ فلم يزال عهد الركاكه دفعة واحدة . صحيح أنك لم تمد تطالع « هذا المرأة » و « تلك الرجل » و « هؤلاء الشخص » و « منه يفهم » و « لذا وكون ما ذكر » و « من حيث ليس » و « ما توري » و « سبوق المحاطبة » و « تحت الأهمية » و « كون من سابقة التحقيق » و « كون من ذا يتضح » و « كان جاري المشاجرة » ، لم تمد تطالع هذا وأشله ، ولكنك تقع على لغة ما زالت سقيمة معتلة كلغة هذا الحكم الصادر من محكمة الجنابات الاستثنائية سنة ١٨٨٧ ، قال يروي وقائع الجريمة :

« وكان عند القتل قبلاً واصف أفا متبنيه وجاءلاً له نصيب في بعض ملكه ، ثم كرهه وطرده واستبعده من المنزل قبل الواقعة بشهر وكان فيروز أفا مدخراً في منزله أمتعة ذات قيمة ، فواصف وعبد الله وخديجة المذكورة عملوا على قتله باتفاق بينهم ، وفي الليلة الممهودة توجه واصف أفا إلى المنزل وكان فيروز أفا خارجاً عنه وكمن في السطح بواسطة خديجة حتى حضر فيروز أفا وكانت خديجة في صالة معتاد نومها فيها وعبد الله ممد له محل بالحوش وفي آخر الليل اجتمع الثلاثة على بعضهم ودخلوا على فيروز أفا وأعدموه الحياة »

إلى أن قال يورد الأدلة على سبق الاصرار ويشير إلى التصوص :
« ومنها اعترافه (أي القاتل) أن خديجة كانت تشتري له ملابس وتناولته تقود من مصروف الأغا على أمل الأغا سزوجها وهذا يفيد سبوق سمي في إعدام الأغا
وحيث أن هذه الأدلة قد أثبتت على عبد الله السوداني التعمد وسبق الاصرار والترص على قتل فيروز أفا بالأسباب المذكورة

بعد ذلك بقليل جامعات أخرى في نيسابور ودمشق وبيت المقدس والقاهرة (١) والاسكندرية وغيرها من البلدان ، وكثيراً ما قامت في مدن اشتهرت بالعلم قبل قيام الاسلام كما سيأتي ذكر ذلك بعد

طبرستان ، ومدرسة بالموصل ؛ حتى قيل إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ، ولكن بعض المؤرخين كالسكي والسيوطي قد ردوا عليه هذا الرأي وقالوا إن المدرسة البيهية بنيسابور قد أنشئت قبل أن يولد نظام الملك ، وأن المدرسة السعيدية بنيسابور قد بناها الأمير نصر بن سبكتكين آخر السلطان محمود

وقد قرأت في الفريزي (في الجزء الرابع من خطه طبعه عادية) : « والمدارس مما حدث في الإسلام ، ولم تكن تعرف في زمن الصعابة ولا التابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعين من سني الهجرة ، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الاسلام أهل نيسابور بنيت بها المدرسة البيهية ، وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية ، وبنى بها أيضاً مدرسة رابحة . وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ينداد لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معالم ، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك ... وشرع في بنائها في سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق التيرازي الفيروزي يادى صاحب كتاب التنتية في الفقه على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه ورحمه ، فأتى الناس به من حيثئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر »

(١) الذي أمره أن الأزهر قد أنشأه جوهر الكاتب الصقلي بعد عام من فتح الفاطميين لمصر ، إذ تم بناء القاهرة في رمضان سنة ٣٦١ هـ وفتح الجامع الأزهر للصلاة في الشهر نفسه من العام ذاته (وهو يوافق يولية سنة ٩٨٢ م) وسرعان ما نشأت صفته الجامعية في ظروف مرضية ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأنت ، وقد لاحظ الأستاذ محمد عبد الله عنان أن الوزير العلامة ابن كاس — الذي كان أيام الوزير بالله — كان له أثر كبير في إسباغ هذه الصفة المليية على الأزهر ، وذكر من بين الأساتذة الذين كانوا في مقدمة من تولى التدريس والإقراء بالأزهر منذ إنشائه بنى النعمان قضاء مصر ، وكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درس بالأزهر ، وقد عقد أول حلقاته في صفر سنة ٣٦٥ وقرأ فيها مختصر أبيه في فقه آل البيت . وجاء في كتز الجوهري في تاريخ الأزهر أن أول من أقام الدرس بتولم هو الوزير بالله ابن المزم ، وأن في سنة ٣٧٨ سأل الوزير أبو النرج يعقوب الخليفة الوزير بالله أبا منصور نزار في صلة رزق جماعة من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم ، وبنى لهم سكناً إلى جوار المسجد وأمدم الوزير من ماله بصلات في كل عام ، وكان عدتهم خمسة وثلاثين فقياً ، وأن في سنة ٣٨٠ رتب المتصدرون قراءة العلم بالأزهر . ولكن الأستاذ جيوم يمس على أن الجامعات قد نشأت في القاهرة بعد المدرسة النظامية التي نشأت سنة ٤٥٧ أي قبل الفتح الوردندي (١٠٦٦ موقفة هاستنجز Hastings) بعام واحد — على أن ما أسلفت ذكره يبرر القول بأن القاهرة قد عرفت الجامعات في الأزهر قبل نشأة المدرسة النظامية بما يقرب من قرن من الزمان